المحاضرة الثالثة عشر:

الفنون النثرية: أدب الرحلة

تمهيد.

1. مفهوم أدب الرحلة. 2. أهمية أدب الرحلة. 3. دوافع أدب الرحلة.

4. أدب الرحلات عند العرب.

5. أدب الرحلات في العصر الحديث (عصر النهضة).

6. نماذج من أدب الرحلات في الجزائر.

المحاضرة الثالثة عشر:

الفنون النثرية: أدب الرحلة

تمهيد: يعدّ حبّ التّنقل والارتحال بحثا عن المغامرة، غريزة في الإنسان، وقد أكّد الكثير من الحكماء والشعراء على ضرورة السفر، لما يعود بالمنفعة على صاحبه، يقول الإمام الشافعي:

تغرّب عن الأوطان في طلب الغلى ** وسافر ففي الأسفار خمس فوائد تفُرّج همّ

واكتساب مـــــعيشة ** وعـــلم وآداب وصحبه ماجد

وقد وجدنا من بعض الرّحالة من ترك أثارا فنيّة تصف ما وجدوه في رحلتهم سواء ما تعلق بالطبيعة الجامدة أو الطبيعة الحيّة، في شكل أدب يسمى بأدب الرحلة الذي ارتبط في الأذهان كما قلت بحبّ الارتحال باعتباره سلوكا إنسانيا ينعكس أثره على الفرد والجماعة. فما هو مفهوم أدب الرحلة؟

1. مفهوم أدب الرحلة: إذا كان المفهوم اللّغوي يحيلنا في اللّغة العربية على معنى السّفر والانتقال والوجهة أو المقصد الذي يُراد السّفر إليه، كقولنا: "أَرحَلَ فُلانٌ وكثرت رواحله فهو مُرحِلٌ...والرُحّال: العرب الذين لا يستقرون في مكان ويحلّون بماشيتهم حيث يسقط الغيث وينبت المرعى"[1] أي أنّها نقيض الاستقرار والثبات، فإن معناه الاصطلاحي يجعلنا نقول هو: "مجموعة الآثار الأدبية تتناول انطباعات المؤلف في بلاد مختلف، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"[2].

إذن فأدب الرحلة يتضمن السرد والوصف باعتبارهما عنصرين مهميّن في جعل النصوص المنتجة، نصوصا إبداعية تضاف إلى بقية الأجناس الأدبية والفنية التي اشتمل عليها متن الأدب العربي، لأنّ الكتابة في هذا الجنس الأدبي ليست بالسهلة واليسيرة، فهي تحتاج إلى ثقافة واسعة متشعبة ومحيطة بكل المعارف تضاف "إليها دقة الملاحظة ومن

---

[1] إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللّغة العربية، الجزء الثاني، دار الدعوة، دت، ص335.

[2] مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللّغة والأدب، الطبعة الثانية، مكتبة بيروت، لبنان، سنة 1984، ص17.

أجل ذلك "يقتضي التأليف فيه ثقافة واسعة ودقة في الملاحظة والتقاط الملامح المعربة ومشاركة عدد كبير من المعارف لاحتواء الرحلة على معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع والأدب وتفرض الأناقة في تخيّر المفردات وصياغة العبارات وتنسيق الفصول"[1].

2. أهمية أدب الرحلة: انطلاقا من التعريفات السابقة، والأفكار الواردة في مفهوم هذا الأدب، برزت للقارئ نقطة مهمة تمثلت في بروز عنصر أهمية أدب الرحلة، خاصة وأنّ متطلبات كتابة فن الرحلة كانت الحد الفاصل في تبيان أهميتها عن باقي الفنون الأدبية، بقول شوقي ضيف: "ولا نبالغ إذا قلنا أنّ الرّحلات من أهم فنون الأدب العربي لسبب بسيط،

وهو أنّها خير رد على التهمة التي طالما اهتم بها هذا الأدب ونقصد تهمة قصوره عن فن القصة"[2] فالتقى أدب الرحلة مع الفن القصصي والفن المسرحي في عنصر الحكي وما يتطلبه من تقنيات السرد الملائمة لهذه الأجناس الأدبية التي تشتمل على مجموعة من عناصر الخطاب القصصي التي يتضمنها السرد كالحدث والشخصيات والإطار الزمكاني.

ونظرا لأهميته البالغة، فقد ظهرت إشكالية التجنيس في هذا النوع الإبداعي يقول كراتشكوفسكي: "أثار هذا الأدب اهتماما بالغا بسبب تنوعه وغنى مادّته فهو تارة علمي وتارة شعبي وهو طوراً واقعي وأسطوري على سواء، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة، لذا

فهو يقدّم لنا مادّة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أيّ شعب معاصر للعرب"[3]، علما أن العرب تميّزوا عن غيرهم من الشعوب بكثرة المؤلفات في هذا الجنس، الذي احتوى كلّ تطلعاتهم وأحلامهم. واذا كان أدب الرحلة هو أحد المصادر المساعدة في دراسة التاريخ، ويعد حلقة من حلقاته الأساسية وفي علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وفي علم النفس للشعوب وفي علم الأديان والثقافة وحوار الحضارات فإنّنا يمكن حصر أخمية أدب الرحلات في النقاط التالية:

---

[1] جبور عبد النور: المعجم الأدبي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1979، ص122. [2] شوقي ضيف: أدب الرحلات، دار المعارف القاهرة، الطبعة الرابعة، دت، ص18.

[3] أغناطوس يوليا نوقتش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963، ص24.

أ. بما أنّ الأديب الرحّالة يمثّل نفسه ويعبّر عن رأيه الخاص به النّابع من أحاسيسه وانطباعاته الذاتية فإن أدبه وُجد من أجل "ترسيخ مجموعة من الانطباعات العامة والتصوّرات عن الشعوب الأخرى سواء أكانت صادقة أم خاطئة"[1].

ب. يكرّس أدب الرحلة فعل المثاقفة، من خلال سعي الأديب على فهم فكر وسلوك الآخر الذي صادفه في رحلته، فما عاينته الذات في رحلتها يعدّ من حيث أبعاده الإيجابية إثراء للتجربة الحياتية، يتغيّر معها سلوك الشخص وتصرفاته بما ينقله من أفكار وعلوم ورؤى حضارية، إنه يسعى إلى عملية "الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرحّالة والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول والنّاس والأفكار"[2].

ج. يعمل أدب الرحلة على تكريس قيمتين: الأولى عملية من خلال تضمينها الكثير من المدونات والمعارف التاريخية والجغرافية وما تحتويه من تصوير للحياة الاجتماعية والسياسية والعمرانية والاقتصادية والثانية قيمة أدبية، من خلال تحول كتابات الرّحالة إلى تجارب فنية نابعة من الذات الشاعرة والمنفعلة تجاه الأشياء التي صادفها ثم صاغها في قوالب فنية أثبتت مكانتها بين الأجناس الأدبية الأخرى.

لذلك يمكن القول أنّ الرحلة وثيقة تاريخية صالحة لكلّ زمان ومكان باعتبارها مصدر من مصادر المادة العلمية والأدبية التي تفيد الباحثين على اختلاف اختصاصاتهم وميولاتهم وأهوائهم.

3. دوافع أدب الرحلة: هناك دوافع متعددة دفعت بأدباء فن الرحلة إلى توظيف هذا الجنس الأدبي وتكريسه في حياتهم وقد تعددت هذه الدوافع وتباينت من شخص إلى آخر حسب ما تمليه الظروف والرّغبات ومنها:

أ. دافع ديني: ومثال ذلك رحلة الحج إلى البقاع المقدّسة، ووصف هذه الرحلة الدينية المقدسة مثل رحلة الوارجلاني (1111م-1171م) حيث تتّفق معظم المصادر على أنّ "للشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السّدراتي الوارجلاني ثلاث رحلات مهمّة وهي رحلته إلى

---

[1] حسين نصّار : أدب الرحلة، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، 1991، ص18.

[2] محمد علي باشا: الرحلة الشامية، تحرير علي أحمد كنعان، سيكو للطباعة والنّشر، الطبعة الأولى، بيروت، 2112، ص19.

الأندلس طلبا للعلم والى السودان للتجارة والاستكشاف وللمشرق لحجّ بيت الله"[1]، جامعا بذلك أنواعا ثلاثة من الرحلات: العلمية والتجارية والحجازية وفي السيّاق نفسه يقول العبدري ت 1289م في كتابه الرحلة المغربي: "والذي غادر الأهل والدّيار خائضا غمار السفر.. وقبض على عصا التيار قاطعا المهامة والقفار غايته.. زيارة البقاع المقدّسة حيث يتّجه المسلم خمس مرّات.."[2] فمن الظاهر أنّ الرحلة مغربية لكنّ الواقع هي رحلة مشرقية حجازية.

ب. دافع علمي تعلّمي: من خلال اسمه يتّضح هدفه وهو الرحلة من أجل طلب العلم، والارتحال إلى بلد ذاع صيته في هذا المجال العلمي، فيكون التحصيل متنوعا من علم الآداب إلى علم الفقه إلى علم الطب إلى علم الجغرافيا... ومثال هذا النموذج نجد القزويني (1218-1283) الذي ترك مؤلفين من حجم واحد أحدهما عن نظام الكون والآخر عن الجغرافيا، فكتابه الأوّل "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" بقي معروفا خلال العصور الوسطى والحديثة، أما كتاب الجغرافيا فكان اسمه "عجائب البلدان" في نسخة أولى و"أثار البلاد وأخبار العباد" في نسخة ثانية، وتدخل رحلته في المؤلفين الأخيرين في باب الجغرافيا التاريخية وكان ذلك سنة 1251.[3]

كما كان لحلة ياقوت الحموي (1179-1229) أثر كبيرا لأنّه كان رحالة وعالما جمع بين معارف كثيرة وأبحر فيلا علوم عديدة منها: الجغرافيا والأدب وعلوم الشريعة واللّغة العربية، صنّف في رحلاته العلمية كتابان "معجم الأدباء" و"معجم البلدان" وهو قاموس جغرافي شهير.

في هذا السياق لا نفوّت القرن الذي بلغت فيه رحلات العرب أقصى غاياتها سواء من الناحية المعرفية أو الناحية الجغرافية أين ظهر للعالم الرّحالة المغربي المشهور ابن بطوطة، وفقد كان مولعا بالأسفار في بلدان العالم المعروف إذ استغرقت كلّها زهاء تسع وعشرين

---

[1] يحى بن يهون حاج أحمد: من الرحلات الحجازية لعلماء المغرب الإسلامي، رحلة الوارجلاني، الطباعة الشعبية للجيش الجزائري، 2117، ص24.

[2] مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، دط، الشركة الوطنية والتوزيع، الجزائر، 1979، ص12.

[3] ينظر، مازن عوض الوعر: التفكير اللّغوي عند الجغرافيين والرّحالة العرب في ضوء اللسانيات الجغرافية الحديثة، مجلة التراث العربي، ط2، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2112، ص175.

سنة[1]، مرّ فيها بالكثير من البلدان الإسلامية، فزار زواياها ومدارسها القرآنية واصفا بدقّة متناهية التركيبة السكانية والمنطقة الجغرافية وما تتميّز به من نباتات وصناعات وحرف، إضافة إلى ما فيها من الطرائف والعجائب.

ج. دافع سياسي: وفيها يكون دافع الرحلة سياسيا، يتمثل في الوفود والسفارات التي يبعث بها الحكّام والملوك إلى حكام الدول الأخرى للتشاور وتبادل الرؤى خاصة في القضايا المشتركة، ومثال هذا الدّافع رحلة محمد المكيّ الدرعي الناصري (أواسط القرن الثامن عشر) صاحب كتاب "الرحلة المراكشية" ورحلة الوزير "الزيّاني" سنة 1786، وذلك حينما كلّفه أحد السّلاطين للقيام بمهمة في البلدان الأجنبية أو الإسلامية، وعند الرجوع يكتب الرحّالة السّفير تقريرا مفصلا يستعرض فيه كلّ ما رأى وما حدث له وما اطلّع عليه[2] فقد عرّفنا بالتلّ ومدنه وبمكانة تلمسان والجزائر وقسنطينة وبمكانة الدّاي حسين، وباي قسنطينة وباي وهران، وبالحالة الاجتماعية.

إضافة إلى دوافع أخرى اقتصادية تجارية وسياحية ثقافية، أتاحت للأدباء الرحالة الفرصة للتعبير، وتنمية الإدراك بالتواصل والتّعرف على عادات وسلوكات المجتمع، لذلك كان من السّهل على المرتحل أن يمتلك ثقافة واسعة تساعده في سرد ووصف الأحداث التي عايشها.

غير أنّ توفر ووجود الدّافع لا يعني حتما نجاح الرحلة وتحقيق أهدافها بل يشترط التواصل مع البيئة المرتحل إليها، من خلال الفهم الجيّد للّغة الجديدة وأسرارها بحيث يُساعد هذا الفهم على كشف أسرار وبواطن وعقليات الأمّة التي شدّ إليها الرحال، لأنّ اللّغة هي وعاء الفكر ولهذا قيل إنّ الرحلة أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وهذا ما جعل أدباء فن الرحلة يرون أنّلهذه الأخيرة "ثمارا لا تتوقف عند التعارف أو صقل الشخصية أو كشف المجهول من طبائع الشعوب لكنّها تجود بالمكاسب العلمية والأدبية التي يتعذر حصرها، خاصة إذا كان الرحالة متمتعا بقوة الملاحظة ويقظة الحواس وحب المحاورة والرغبة في التحصيل والحرص على التدوين والتسجيل"[3].

---

[1] ينظر، رحلة ابن بطوطة: منتدى مكتبة الإسكندرية، دار صادر، بيروت، 1999، ص14.

[2] ينظر، حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1983، ص69.

[3] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، الطبعة الثانية، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2112، ص23.

ما نستنتجه أنّ الرحلة هي دليل القارئ في متاهات المجهول من البلدان والجناس يرافقه خطوة خطوة ويأخذ بيده برفق ليصل به إلى الهدف الأسمى في الكشف عمّا يحيط به، من مظاهر الحياة.

4. أدب الرحلات عند العرب: لقد أسهم العرب اسهاما كبيرا في تطور أدب الرحلات حيث أبدعوا فيه وفاقوا أقرانهم في التّفنن في الأساليب والصوّر ودقة الوصف للمشاهد التي صادفوها، فاطلقوا العنان لخيالهم ليفعل ويبدع ويخرج للقارئ اللّوحات الرائعة.

فقد عرف العرب الرحلة منذ العصر الجاهلي، خاصة الرحلات التجارية إلى العراق والشّام واليمن وغيرها من البلدان، والدليل على ذلك رحلة الشتاء والصيف التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، هذا إذا استثنينا الرحلات القصيرة التي كانت تقوم بها القبائل بحثا عن مواطن الماء والكلأ، وما تركته من أثار في الوقوف على الأطلال التي اتّسمت بها القصيدة الجاهلية.

أما في العصر الإسلامي فقد ساهمت مهمة نشر الإسلام في مختلف أسقاع العالم في انتشار الرحلات فقام المسلمون: "بوصف البلاد التي فتحوها كما دعاهم إلى ذلك الاستخبار عن الأمم السابقة ونقل علومهم ومعارفهم إلى العربية"[1].

وفي القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد، بدأت مرحلة جمع أخبار الرحّالين وحكاياتهم كما هو الشأن في الأخبار التي رواها ابن خُ°ردادبة عن "سلام الترجمان" في كتابه المسالك والممالك[2] الذي جمع فيه كلّ أخبار الدول العبّاسية في شكل تقارير مفصلة ذلت حلّة فنية راقية، كما برز في هذه المرحلة كتابان شهيران "كتاب البلدان" و"فتوح البلدان" لليعقوبي المتوفي عام 892م[3].

وقد فتح هذا القرن فتحا كبيرا لأدب الرحلات وللرحالة الذين جاءوا بعده إذ شهد القرن الحادي عشر للميلاد بزوغ اسم أبي الرّيحان محمد البيروني الذي عمل عند السلطان محمد الغزنوي عام 1117 وقام حينها بعدّة رحلات علمية إلى بلاد الهند التي قضى فيها قرابة

---

[1] محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام، الجزء الأول، دار الفكر العربي، بيروت، سنة 1996، ص141.

[2] ينظر، أحمد أبو سعد: أدب الرحلات وتطور في الأدب العربي، منشورات دار الشرق الحديد، بيروت، ط 1، ص21.

[3] ينظر، عمر بن قينة: اتّجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص12.

أربعين سنة أثمرت كتابه الشهير: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"[1] وقد اشتمل هذا المؤلف على الجانب الفكري والثقافي للهنود.

وبمجيء القرن الثاني عشر برز رحّالة مغاربة نالوا شهرة كبيرة، فقد جابوا أنحاء العالم شرقا وغربا وجنوبا وشمالا، فغزت مؤلفاتهم المكتبات الأزروبية ونافستها في الجودة والقوة ومن هؤلاء الرحالة نذكر:

أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي الأندلسي (1199م-1153م) صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق" إذ كرّس في مؤلفه هذا حسّه الجغرافي المبني على دقة الوصف ودقة إبداع الخرائط، ممّا جعل بعض النقّاد يصنفون الإدريسي بوصفه أعظم عالم جغرافيا في القرون الوسطى[2] إضافة إلى الإدريسي نجد الوارجلاني أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السّدراتي الوارجلاني (1111م-1171م) وقد سبق الحديث عنه في نموذج الرحلة الدينية.

أمّا في القرن الثالث عشر، فقد بدأ يطغي الجانب العلمي على أدب الرحلات وذلك ما تبرزه كتلبات الرّحالة الآتية أسماؤهم: العبدري ت عام 1289 وكتابه "الرحلة المغربية" وقد سبق الحديث عنها في عنصر دوافع الرحلات، وكذا القزويني وكتابيه "نظام الكون" وكتاب "الجغرافيا" وقد تحدثنا عنه سابقا، يضاف لهما الرحالة ياقوت الحموي (1179-1229) فقد كان عالما جمع بين علوم متنوعة.

أمّا في القرن الرابع عشر ميلادي فقد بلغت فيه الرحلات العربية أقصى أهدافها وبلغت قمة النضج سواء من الناحية المعرفية أو الناحية الجغرافية ومن أبرز علماء هذه الفترة "ابن بطوطة" المشهور بالأسفار والمغامرات ولسان الدين بن الخطيب (1313-1374) الذي جمع كلّ مشاهداته في أربع رحلات وهي "خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف" و"مفاخرات" و"معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار" بالإضافة إلى رحلته الرابعة "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب".

---

[1] نبيل راغب: فنون الأدب العالمي، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، الطبعة الأولى، 1996، ص32.

[2] ينظر، يحى بن يهون حاج أمحمد: من الرحلات الحجازية لعلماء المغرب الإسلامي، رحلة الوارجلاني، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2117، ص24.

يأتي القرن الخامس عشر الذي يعدّ خاتمة عصور الرحلات العربية في القرون الوسطى وقد اشتهر أيضا بكثرة الرّحالة ومنهم الحسن الوزّان 1483-1551.

أما الرحلات من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر فقد عرف تقهقرا كبيرا بحيث كادت تنعدم لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية.

5. أدب الرحلات في العصر الحديث: (عصر النهضة): شهد أدب الرحلة في القرن التاسع عشر، نقلة نوعية، فقد أعطاه مسحة أدبية وصارت الجغرافيا والتاريخ في حدود الإحاطة بالجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية و... المتعلقة بجوانب الرحلة، خاصة والعالم العربي قد شهد موجة استعمارية كنّاقد أشرنا إليها في بداية الحديث عن عوامل نهضة الأدب في العصر الحديث.

ومن نماذج الرحلة في مطلع عصر النهضة أحمد فارس الشدياق وقد سجّل رحلته إلى أوروبا في كتابه "كشف المخبأ عن أحوال أوربا"[1] شارحا فيها وبالتفصيل سياحته في إنجلترا وغيرها من البلدان الأوروبية، مشيرا إلى عاداتهم وآدابهم وأخلاقهم وتاريخ تمدينهم كاشفا سرّ تقدمهم بأسلوب رائق شيق.

وكذلك سليمان البستاني (1816-1883) العالم الضليع واللّغوي المحقق، وقد جمع رحلاته في مدونته دائرة المعارف وهي موسوعة كبيرة اشتغل فيها أبناؤه بعد وفاته، وفي القرن العشرين زاد الاتصال بالغرب وكثرت الرحلات خاصة العلمية، التي لعبت دورا كبيرا في نمو الوعي الوطني والحضاري لدى رحالة هذا القرن فسجّلوا ملاحظاتهم في كتب ألفوها ونذكر من هؤلاء رحلة محمد بن لبيب البتنوني في كتابه "رحلة إلى الأندلس" ومحمد المويلحي في ملحق كتابه "حديث عيسى بن هشام" ومحمود تيمور لمّا زار أمريكا وألّف كتابا سمّاه "أبو الهول يطير".

وقد عكست رحلات الأدباء العرب إلى أوروبا نظرتهم إلى ثقافة الغرب في تلك الفترة من خلال محاولة نقل ما يمكن نقله من علوم وآداب ومعارف وفنون إلى الوطن العربي، خاصة مصر في تلك المرحلة، مع إبداء آرائهم النابعة أيضا من عادتهم ومعتقداتهم التي تختلف مع عادات ومعتقدات الأمم الأوروبية.

[1] ينظر، عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ج1، دار الفكر للطباعة والنّشر والتوزيع، دت، ص111.

وفي هذا المقام نستشهد بما كتبه أمين الريحاني في كتابه "ملوك العرب" إذ يقول وهو في رحلته إلى صنعاء: "في صباح اليوم الثاني 18 نيسان 1922 بعد خروجنا من لحج وصلنا إلى حزيز، المرحلة الأخيرة في رحلة مشقاتها تنسي المسافر ما فيها من الحسنات والمستغربات، لكنّ أثر المشقات يزول فتعود الحسنات إلى مقامها في الذاكرة والفؤاد، إنّي وأنا أكتب الآن أتمتع بها وأستأنس بترداد ذكراها، كأنّي في رحلة أخرى إلى صنعاء لا مشقة فيها ولا عناء"[1].

هذه الفقرة تحيلنا إلى خاصية من خصائص أدب الرحلات وهو التقيّد بالإطار الزماني والمكاني كونه يحكي قصة حقيقية عاشها خلال سفره فسجّل كل جزئياتها في دفتر خاص، حتّى لا تغيب عنها شاردة أو واردة.

6. نماذج من أدب الرحلات في الجزائر: لقد اهتم أدباء الجزائر بهذا الفن، وأولوه عناية كبيرة بدليل الآثار المكتوبة والشاهدة على ذلك ومن هؤلاء نذكر:

أ. أدب الرحلة عند ابن حمادوش[*] الذي في القرن الثامن عشر الذي عرف تحولات كثيرة داخل الجزائر وخارجها وكان ابن حمادوش من مشاهديها ومسجليها[2].

لقد جاءت حياة ابن حمادوش كلّها عبارة عن رحلات زرا فيها بعض البلدان العربية ورأى ما فيها من الغرائب والعجائب فنسخها في كتابه "لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال" الذي تناول فيه جملة من موضوعات الرحلة قسّمها الدّارسون إلى قسمين: الأول ضمّ فنون النثر من المقامات والرسائل والتقاريظ وعقود الزواج والإجازة والقصص أما الثاني فتناول فيه أغراض الشعر مثل المدح والحنين إلى الأهل والوطن والفخر والهجاء والرثاء والألغاز.

---

[1] أمين الريحاني: ملوك العرب، الجزء الأول، الطبعة الثامنة، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1987، ص168.

[*] ابن حمادوش هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري، ولد خلال القرن الثامن عشر الميلادي في مدينة الجزائر، عاش فقيرا لأنّه لم يفلح في التجارة توفي بعد حوالي 91 سنة من ميلاده من مؤلفاته "لسان المقال عن النبإ عن النسب والحسب والحال".

[2] ينظر، أبو القاسم سعد الله: الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2115، ص13.

أما مضمون الرحلة فقد قسّمه النقاد إلى ثلاثة أقسام أيضا:

* قسم المغرب من الصفحة 2 إلى الصفحة 75 ويصح تسميتهُ رحلة، والظاهر أنّ ابن حمادوش كان يتردّد على المغرب للتجارة والعلم، فقد ذكر أنّ أوّل مدينة زارها في المغرب هي تطوان: "بعد شروق الشّمس خرجنا من جبل طارق... فدخلت تطوان في أوّل السّاعة السابعة، وصليت الظهر بها جماعة فلقيت من علمائها الشيخ أحمد الورززي فسلّمت عليه"[1].

وفي تطوان وصف كلّ ما رآه وما شاهده، فقد وصف ثورة حاكم تطوان (أحمد الريفي) ضد السلطان مولاي عبد الله، كما تضمنت كتاباته أخبارا عن عادات وتقاليد أهل المغرب خاصة في الاحتفال بليلة المولد النبّوي الشريف كما يذكر غرائب وعجائب ما رأى في

المغرب كدخولهم للحمامات عراة تماما وهي عادة استقبحها، يقول: "من أقبح ما في المغرب كلّه حماماتهم يبدون عوراتهم فيها"[2] كما أورد في رحلته تفصيلا كبيرا عن الدروس التي حضرها في المغرب إذ ذكر أسماء العلماء الذين التقى معهم وناقشهم.

* قسم الثاني: وقد كتب فيه عن المؤلف نفسه في الجزائر وفيه مذكرات وحوادث يومية عن قراءاته وملاحظاته، وهذا الجزء يمكن اعتباره سيرة ذاتية عن المؤلف نفسه وخاصة عن مشاكله من زوجته الثانية التي لم تتقبل فقره وطلبه العلم فهربت منه وطلبت الطلاق وفارقته

أمّه وأخوه، فحاول الجمع بين العلم والتجارة فلم يفلح.

* القسم الثالث: ويضم نقولا كثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين وهي العوامل التي ساهمت في تكوين رصيده العلمي وحصوله على الإجازة، فذكر تقريبا كلّ المصادر والمراجع التي أخذ منها قسطا وافرا، وكان لا يكتفي بالتعلم النظري وحده سواء أكان ذلك من العلماء أم من مطلعاته للكتب المختلفة العربية والأجنبية بل نجده يطبق ما تعلّمه عمليا حيث قام بتركيب المعاجين الطبيّة ويعرضها للبيع في دكانه ولهذا نستطيع القول أنّ دكانه كان بمثابة المخبر العلمي.

---

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري: لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال، تحقيق أبو القاسم سعد الله، د-ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1883، ص19.

[2] ابن حمادوش: الرحلة، ص59.

لقد استطلع إنشاء معجون سمّاه "معجون الصلاح" وأكدّ أن لا أحد قد سبقه في هذا الاكتشاف ويقول إنّه ركّبه: "على منوال معجون الفلاسفة، لكن لم أسبق به وسمّيته معجون الصلاح ومعجون الواحد، لأنّ عدد وزنه يجمعها واحد"[1].

ويقول أيضا: "فاليوم والحمد لله أناعشّاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض"[2]. وهكذا كان ابن حمادوش علّامة في أدب الرحلة، اتّسمت كتاباته بدقة الملاحظة وبراعة

الوصف وتشعب التحليل، حتّى بعض الأمور الدقيقة لا يفلتها في تعليقاته وقد صاغ كلّ ذلك في لغة عربية سهلة، يغذيها أحيانا باللّهجة العامية، وكأنّي به يراعي مستوى المخاطب،

علما بأنّ أدبه الرحلاتي قد عايش الدولة العثمانية في الجزائر "ففضلا عن طرافتها كقطعة أدبية لها قيمتها من حيث كونها صورية جزئية للمجتمع"[3].

ولأنّه -ابن حمادوش- قد كتب في الكثير من الأجناس النثرية والشعرية، فقد اخترنا نموذجا من المقامة يقول فيه: "الحمد لله محول الأحوال ومرضي البال ومقلب الأمور في الدّهور، والصلاة والسلام على خير الأنام المبشّر بالفرج بعد الشدّة والمنذر بالعناء بعد اللّذة، فقال تعالى: ﴿**فإنّ مع العسر يس ار إنّ مع العسر يس ار**﴾ الآيتين 15 و16.

وبعد لما جرى القضاء المحتوم والأمر الملزوم، لأ ن خفّ الريش وأكل الجويش ومضض العيش، فخلفنيالجيش وكثر الصرف وقصر الطرف وجفّت الإخوان وقلّت الخدان وغلب الزمان، فارتفعت الأقران وصعبت التجارة وسهلت الخسارة، قرنت بحارة عيشتها مُرّة

البذرة عندها ذرّة وميرة الحجيج عندها بعرة، ولا يشبعها الجليل ولا تعبأ بالقليل، الهموم عندها هم والغموم عندها غم، حوائجها من جنون وامالها ضنون ورغبتها فيما لا يكون، الدّهر كلّه ساخطة ومطالبها شائطة... لاتجيء لإلّا ثمرة الخلاف ولا تركن إلّا لعدم الإسعاف"[4].

هكذا تبدو عبقرية ابن حمادوش في هذا النص المقامي، إذ استطاع أن يعبّر بواقعية صادقة وبلغة اتّسمت بالإنسانية والسهولة، جعلها مختلفة تماما عن مقامات البديع الزمان الهمذاني المبنية على الأسطورة والخيال.

---

[1] ابن حمادوش: الرحلة، ص121. [2] المصدر نفسه: ص164.

[3] عبد المالك مرتاض: فن المقامات في الأدب العربي، الدار التونسية للنشر، 1988، الطبعة الثانية، ص521. [4] ابن حمادوش: الرحلة، ص164-165.

ب. أدب الرحلة عند الشيخ الحسين بن محمد السّعد الورثيلاني[*]: تعد رحلة الورثيلاني من أهم الرحلات الجزائرية خلال القرن الثامن عشر، وقد نشرت من طرف محمد بن أبي شنب، بعد جمع الكثير من مخطوطاتها وطبعت عدّة مرّات أوّلا في مطبعة فونتانا بالجزائر العاصمة عام 1918 وثانيا في مطبعة المكتبة الثقافية الدينية بالقاهرة عام 2118.

وهي عبارة عن رحلة قادها الورثيلاني لأداء فريضة الحج، وقد عدّها الدّارسون من أهم المصادر التاريخية، لأنّها عكست مدى وعي الكاتب بتصوير الحياة بمختلف جوانبها، بقول:

"... لا سيّما أهل بلادنا، فإنّ علم التاريخ منعدم فيهم وساقط عندهم فيحسبونه كالاستهزاء أو انشغالا، فترى المتوجه منهم إلى الله يرى الكلام فيه مسبقا من عين الله"[1]. وقد احتوى مضمون الرحلة الورثيلانية عاى ثلاثة أقسام:

* **بداية انطلاق الرحلة إلى البقاع المقدسة**، فقد وصفها منذ الخطوة الأولى التي خطاها من بني ورثيلان مارا بالمدن الجزائرية، إلى تونس وليبيا ومصر والى الحجاز، يقول: "ثم مشينا من زمورة صبيحة الأحد ومع ذلك خرج معنا جموع من النّاس فمنهم من وصل إلى أطراف العمارة، ومنهم من وصل إلى قرب الوادي ومنهم من وصل إلى عقبة زمورة، وكلّهم محبّة في الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم وأمة محمد"[2].

فالورثيلاني يصف في هذه الفقرة لحظة خروجه من قريته قاصدا بيت الله الحرام، وهو وصف تاريخي للأحداث المعاشة، ولما مرّ بمصر ورأى ما رأى في الإسكندرية قال: "ومن عجائب مباني أرض منارة إسكندرية وهي مبنية بحجارة مهندمة مطلية بالرّصاص على قناطر من زجاج والقناطر على ظهر الأسطوانات من نحاس وفيها نحو ثلاثمائة بيت بعض فوق بعض"[3].

---

[*] هو الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني، ولد عام 1125هـ ببني ورثيلان سطيف من أسرة شريفة، حفظ القرآن وهو صغير السن، ثم نهل من علوم الفقه واللّغة في مدرسة والده، انتسب إلى الطريقة الشاذلية، اشتغل بالتدريس متنقلا بين المدارس، تخرج على يده الكثير من العلماء، اهتم بجمع العلوم الفقهية وانجاز شروحات مستفيضة عن عالم التّصوف والمتصوفة، له مؤلفات كثيرة أهمها: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" المعروف بالرحلة الورثيلانية، توفي عام1193هـ.

[1] الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق محمد بن أبي شنب، المجلد 2، ط1، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، مصر، ص685.

[2] سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والخبار، مصر، ص111.

[3] المصدر نفسه: ص651.

فتصويره للمباني التي انبهر بها في الإسكندرية يشبه عدسة الكاميرا التي تأخذ المشاهد ليرى ويتؤدة جزء جزء من الصورة الرائعة.

* **أداء فريضة الحج:** وبدأ هذا القسم منذ أن وطأت قدماه أرض الكنانة إذ يقول حين دخوله مكة المكرمة: "فدخلناها في زحمة عظيمة كادت النّفوس أن تزهق غير أن سرورها بالوصول إليها خفّف بعض الألم، بل قد زال التّعب والنّصب، كأنّ النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلّا من منحه الله بل الأرواح، قد تجلّى عليها ربّها فخرّت صعقة مغشية عليها، فغيبها عن الأكوان كلّها بمشاهدة مكونها، ومن جملة من غابت عنه هذا الغيب فلم تكترث بما أصابها من الهمّ والمشقة، فلمّا هبّ نسيم جوار الحبيب عليها أيقظها وأشهدها رسوم مكان الوصال ودلائل الحضرة وسواطع الانتقال"[1].

في هذه القطعة الأدبية يبدو أثر البعد الديني واضحا على الهدف من الرحلة التي أضفى عليها مسحة صوفية سجّلت لحظة المشاهدة والتّجلي الربّاني لعبده وعباده الذين جاؤوا شعثا غبرا، لقد جعلت لحظة المكاشفة التي عاشها الورثيلاني لمّا رأى بيت الله الحرام، يعيش لحظة الفناء عن هذه الدنيا، فتظل الروح متعلقة بخالقها ناسية ما حولها، وهذا ليس بغريب على الورثيلاني الذي تشبّع من رحيق الثقافة الإسلامية.

وفي المدينة المنورة لا يفوّت فرصة تسجيل بعض المشاهد، خاصة تلك التي لها علاقة بالتاريخ الإسلامي كقوله: "ومن المشاهد التي تزار في المدينة وليس بالبقيع مشهد مالك بن سنان وهو من شهداء أحد، ومشهد غربي المدينة يلصق السور من داخله وعليه قيمة قديمة البناء ومحلّة من سوق المدينة القديمة"[2].

* **رحلة العودة:** وهو القسم الثالث والأخير من رحلته المقدّسة، إذ بعد أن أدى مناسك الحج قفل راجعا إلى الدّيار، وقد امتلأت نفسه بالفرح والانشراح ممّا جعل عزيمته تزداد قوّة وصلابة.

---

[1] الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص452. [2] المصدر نفسه: ص541.

والحق أن الرحلة الورثيلانية لم تخل من مضامين أخرى فعلى حدّ قول محمد بن أبي شنب الذي حقق كتاب الرحلة: "تراه تارة راتعا في رياض الفقه والحديث والتوحيد وتارة واردا أحياض التفسير والتاريخ والتجويد وآونة طامحا إلى التّصوف والنصح والوعظ باذلا في ذلك كلّه غاية الجهد والنكظ فاصلا جمانه بمرجان الحكايات الأنيقة مرصعا وشاحه بياقوت الأشعار الرقيقة"[1].

وخلاصة القول: أنّ ما ميّز الرحلة عند الورثيلاني هو الأسلوب السهل البسيط الواضح وقد امتاز بالدقّة والشمول والوضوح في سرد أحداثه، أما منهجه فقد اتّبع نظاما معينا في سرد أحداثه لأنّها جلّها عبارة عن أحداث ومشاهدات شاهدها خلال رحلته.

ومنه نقول لقد ساهم نص أدب الرحلة في تسجيل الكثير من الرحلات بتسلسل كرونولوجي من البداية إلى النهاية، ما جعله يصبح وثيقة تاريخية وأدبية شاهدة على عبقرية صاحبها، ولبنة مضافة إلى هرم الكتابة الأدبية.

[1] الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية (مقدمة المحقق)، ص13.